

عزّة المؤمن



يقول سبحانه وتعالى في مفهوم العزّة: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّهِ الْفُتُوحُ وَأَلَيْهِ يَأْسِرُ الْوَاقِلُونَ» (المنافون/ 8). فالعزّة، هي التي تعالی منبعها ومصدرها وأساسها، وهي للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بصفته مُتَخَلِّقاً بأخلاق الله في أبهى صور التخلّق وأكملها، وهي للمؤمنين المتأسّسين برسولهم، والمتخلّقين أيضاً بأخلاق الله جلّ جلاله. التخلّل للمؤمنين الصالحين، بالتواضع لهم، والمسامحة والمرحمة والعطف عليهم يعتبر عزّة: «وَإِخْفِضْ جَنْاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر/ 88). والمؤمنون في تعاملاتهم اليومية يُراعون الإنصاف وحُسن السيرة، فإذا (تَذَلَّل) المؤمن لأخيه مُسترضياً، أو مُسامحاً، فإنّه لا يشعر أنّ شيئاً من (عزّته) قد انتقص، وإنّما يرى أنّ (عزيزاً) يتعامل مع (عزيز).

ويقول تعالى في موقع آخر: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» (الْأَنْعَامُ/ 167). أيّ مثلما (العزّة) بيده، (الإذلال) أيضاً بيده، يهبُ الأولى لمن يستحقّها من الناس، وينزعها عمّن لا يليق بها ولا تليق به، فيبقى أبد الدهر ذليلاً، وإنّ تَوَسَّلَ بوسائل العزّة الماديّة كلّها. قال تعالى في العصاة من بني إسرائيل: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْغِضَنَّ إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن يَسُوءْ سَوءَ الْوَعْدِ» (الأعراف/ 167). وفي الدُّعَاء: «فكُم يا إلهي من أُناسٍ طلبوا العزّة بغيرك فذلّوا». وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «إنّ الله فوّض إلى المؤمن أُموره كلّها، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً». إنّ الذّلّ يُطفئ المَهْمَّةَ، والإرادة، والعزّة، والطموح، والإحساس بالكرامة والمسؤولية، تماماً كما يُطفئ الماءُ النارَ ويُخمدُه. الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه يقول قبل مقتله: «هيهات منّي الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون». والسيّد زينب (عليها السلام) تقول بعد مقتله: «ما رأيتُ إلاّ جميلاً». السيّد زينب (عليها السلام) هي التي علّمتنا كيف لا ينكسر الأعزّاء، حتى وإن كانوا يرسفون في القيود، علّمتنا كيف يكون العزّ بطاعة الله، والذلّ بمعصيته: «من أراد عزّاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى ذلّ طاعته». وقد

سُئِلَ الإمام عليّ (عليه السلام) يوماً: «أيّ ذلّ أذلّ؟ فقال: الحرص على الدّنيا». العزّة إذن كلّها في كربلاء، على الرغم من الانكسار العسكري، لأنّ إحقاق العزّة الإلهيّة التي أرادها الله للإنسان عموماً، ولعباده المخلصين خصوصاً، تجلّى في إباء العزّة لأعزّاء هُزِمُوا ميدانياً؛ لكنّهم لم يُهزِمُوا روحياً، ولا نفسياً، ولا معنوياً. فالحرصون على الدّنيا أذلّاء بامتياز، فهم يقبلون عليها إقبال جائع جشع نهم طمّاع، وكلّهم اكتناز ما أمكنهم من المال، وإشباع شهوتهم إلى لذّة أو منصب، من دون أيّ اعتبار للكرامة الشخصية.

إنّ المجتمع الإيماني هو المجتمع الذي يأخذ بأسباب العزّة والكرامة والإرادة والمعرفة والبصيرة، وهو المجتمع الساعي إلى بلوغ الكمال في شخصيته وحركته ووجوده، وهو الموحّد في كلّ تفاصيل مسيرته سلوكاً وعملاً. فالدين هو شعور ينبثق عن وعي الإنسان ومعرفته بنفسه، ويدعوه إلى الكمال عن طريق تقديس القيم السامية من قبيل: الخير، البصيرة، اللطيف، الحرّية، المعرفة، الكمال، الهداية، العزّة، العدالة، الحقّ، ومناهضة الضعف والذلّ. وتجتمع كلّ هذه القيم في إطار التوحيد الذي يعدّ أكثر الأُطر الدينيّة شمولاً في معبودٍ واحدٍ هو الله عزّ وجلّ.

وأخيراً نقرأ في الدّعاء: «إلهيّ كفى بي عزّاً أنّ أكونَ لك عبداً، وكفى بي فخراً أنّ تكونَ لي ربّاً، أنتَ كما أحبُّ، فاجعلني كما تحبُّ، إنّك أنتَ أرحم الراحمين، والحمد لله ربّ العالمين».